

في الفلسفة الإسلامية

ابن باجه
للاستاذ عمر الدسوقي

لمحة تاريخية

فتح العرب الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وظلت الأندلس ولاية تابعة للبيت الأموي في دمشق ، ولا سقطت دولة بني أمية ، وأسس بنو العباس ملكهم في بغداد ، وأخذوا يضطهدون الأمويين ، فرّ الأمير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل إلى الأندلس في سنة ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد أفلح في تجديد ملك بني أمية بالأندلس ، ولكنه لم يتسم هو أو خلفه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين ، وإنما كان ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ و ٩١٢ - ٩٦٠ م ، وظلت الخلافة قائمة حتى سنة ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م حين غلب الأمويون على أمرهم وانتشرت الفتن في البلاد ، وضرب البربرقراطية ، ومن ثم استقل كثير من الأمراء بمقاطعات صغيرة ودعوا بملوك الطوائف : كبنى عباد إشبيلية ، وبنى الأقطس بيطليوس ، وبنى ذي النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقطة ، وبنى عامر بيلنسية ، ومجاهد العاصري بجزر البليار

وفي ذلك الوقت قامت في المغرب ثورة تدعو إلى استقلاله عن الأندلس ، وانفرد بالحكم فيه المرابطون . وقد حدث أن دعا ملوك إشبيلية المرابطين لنجسهم في بعض حروبهم ضد القرطبية ، فأعانوهم ثم تغلبوا على بقية الأندلس وظلوا يحكمونها أكثر من نصف قرن حيث ذهب ملكهم في بلاد المغرب على يد المرابطين الذين ورثوا عنهم الأندلس وحكموها مدة قرن من الزمان ١١٤٩ م - ١٢٣٢ م ؛ وبعد سقوط هذه الدولة عادت الأندلس إلى التفرقة والاقسام ، ثم أخذ ملك حكامها يتقلص تدريجياً إلى أن أجلى العرب عن غرناطة آخر حصونهم سنة ١٤٩٢ م

أما الحالة الفكرية فكان المغرب في أثناء حكم الأمويين يعتمد على المشرق في كل شيء تقريباً من الناحية العلمية ، وكان يستمد للتضوج الفكري ، وقد اجتهد الأمويون ولا سيما في خلافة الحكم بن عبد الرحمن ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ في جلب كثير

من الكتب الثمينة التي ألقت في المشرق ، كما كان علماء المشرق الذين ضاقت بهم الحال في بلادهم يجدون في الأندلس سوقاً رائجة لأفكارهم ومعلوماتهم ، وكذلك كان كثيرون من محبي العلم في الأندلس يقصدون المشرق واردين العلم من متابعة الأصلية ، فيمرون بمصر والشام وبفداد والحجاز وقد يذهبون إلى فارس . على أن الحياة الفكرية لم تبلغ أشدها في المغرب إلا في عهد المرابطين ، ثم بلغت أوجها الذهبي في زمن المرابطين حيث ظهر ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وغيرهم . ويجدر بنا قبل الكلام عن ابن باجه أن نبدي الملحوظات الآتية :

١ - كان المغرب بعيداً عن المنازعات الدينية المنيفة التي ظهرت في المشرق ، فلم يصد فيه إلا مذهب مالك ، ولم يكن فيه لا مجوس ولا زنادقة ، ولم يظفر فيه كثير من علماء الكلام والجدل . وكان أهم ما يعتنى به أهله ولا سيما في عصر الأمويين الطب والرياضيات والتنجيم . وكان الناس مشغوفين بالشعر والتاريخ والجغرافيا ، ولم تكن موجة التفلسف قد غمرتهم وأفسدت عقولهم كما هو الحال في المشرق . هذه كانت حال الأندلس أول الأمر

٢ - ولكن نجد أن المذهب الظاهري الذي يمثلته ابن حزم - وهو من أشد المذاهب ضيقاً - يسيطر على الأندلس ، حتى ترى كل من يفكر في الفلسفة يضطهد . فلما قدم عبد الله بن مرة القرطبي إلى بلاد الأندلس يحمل الفلسفة الطبيعية (التي يمثلها الكندي) في عهد عبد الرحمن الثالث أحرقت كتبه أمام ناظره ولهذا لم يجد الفلاسفة جواً من الحرية حتى ينشروا آراءهم . ولقد اضطهد ابن باجه وابن رشد من العامة وبخاصة على السواء ؛ ولهذا أيضاً أخذ فلاسفة الأندلس النظرية القائلة بأن الفلسفة لا تصلح للعامة وإنما هي وقف على الموهوبين من الخاصة ، وسنجد كذلك محاولتهم في التوفيق بين الفلسفة والدين

٣ - لم يوجد في الأندلس جماعة يقومون بالنقل والترجمة ويتقدمون بعرض الآراء الفلسفية كالتبعاوية والنساطرة في الشام والعراق ؛ أما اليهود الذين ادعى كثير من المستشرقين بأنهم كانوا الواسطة في نشر الفلسفة بين مسلمي الأندلس فأثرهم ضئيل ، وهؤلاء كانوا تلامذة للمشاركة فتأثر باخيا بن باقودا بإخوان الصفاء وتأثر ابن جبرول وغيره بفلاسفة المشرق الإسلاميين^(١)

وعلى العموم فقد كانت الحياة بالأندلس غير ملائمة لجو الفلسفة ، وكان الفيلسوف يشعر بوحشة نوعاً ما لشدة التعصب. وضيق العقل

(١) أنظر دي بور ترجمة أبي ربه من ٢٢٧

عن هو ابن باجه

هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه^(١) ولد في مدينة سرقسطة في أواخر القرن الخامس الهجري في ذلك الوقت الذي عصفت فيه ريح الأتحلال بدولة بني أمية بالأندلس ، وشب أبو بكر والمرابطون يحكمون في البلاد ، فأتخذه حاكم سرقسطة أبو بكر بن ابراهيم صهر أمير المرابطين جليسا له وزيراً مما أوغر صدر المسكر والفقهاء^(٢) ولكن الأحوال في سرقسطة اضطربت وهاجها ألفونس الأول ملك أرجونة فسقطت في يده عام ٥١٢هـ ، ١١١٨م . فرحل عنها ابن باجه ، وذهب إلى أشبيلية ، واستقر بها وألف فيها بعض رسائله في المنطق كما يقول مونك^(٣) . وقد فرغ من إحداهما في شوال سنة ٥١٢هـ ، وتوجد في مكتبة الأوسكوريال تحت رقم ٦٠٩ . ثم قصد ابن باجه مدينة غرناطة وأقام بها مدة ، ومن ثم ذهب إلى بلاد المغرب . ولما صر بشاطبة اعتقله الأمير أبو إسحق بن يوسف بن تاشفين كما روى الفتح ابن خاقان بسبب لم يذكر ولعله الزندقة ، ولكن ما لبث أن أطلق سراحه بشفاة والد الفيلسوف ابن رشد

وروى أن أبا بكر بن يحيى بن تاشفين استوزر ابن باجه عشرين سنة ، ولكن « مونك » يشك في ذلك لأن الحوادث التاريخية لا توافق هذه الوزارة ؛ إذ أن أبا بكر بن تاشفين كان قد فر من فاس سنة ٥٠١هـ - ١١٠٧م ؛ وذلك قبل تزوج ابنه إلى بلاد المغرب فيظهر أن مسألة الوزارة هذه غير صحيحة

مات ابن باجه ولم يعد طور الشباب ، وقيل إنه مات مسوماً إذ كاد له أطباء بلده حسداً منهم وحقداً . وكان ابن باجه قدمي بأعداء كثيرين ، وكانت وفاته في رمضان سنة ٥٢٣هـ ١١٣٨م بمدينة فاس ، وكان قبره بجوار قبر القاضي ابن العربي ومن أشهر أعدائه الذين حاربوه ورموه بالزندقة والكفر والخروج عن جادة الدين الفتح بن خاقان الفرناطي صاحب « قلائد العقيان » ؛ ومما قاله قادحا فيه : « إن ابن باجه رمد جفن الدين . وكمد نفوس المهتدين ، اشهر سخفاً وجنوناً ، وهجر مفروضاً ومسنوناً ، فاهيك من رجل ما تظهر من جنابة ولا استنجي من حدث ، ولا أقر بياربه ومصوره ... نظر في تلك التعاليم ،

(١) الباجة بالتشديد كما قال ابن خلكان وصاحب فتح الطيب ومما للفضة بلغة نصارى الأندلس

(٢) قلائد العقيان للفتح بن خاقان

(٣) Munk في كتابه Mélanges de philosophie Juive et Arabe

وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة : (الفلك) ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهي والإبعاد ، واستهزأ بقوله تعالى : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ؛ فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نبات له نور ، جماله تمامه ، واختطافه قطافه . وانتتمت نفسه إلى الضلال واتسبت ، ونفت يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، قصر عمره على طرب وهو ، وأقام سوق الموسيقى ، فهو يكف على سماع التلحين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ولا يؤمن بشيء . قادنا إلى الله في أسلس قياد ، مع منشأ وخيم ولثوم أصل وصورة شوهاها الله وقبحها^(١) »

ولا شك عندي وعند كل ذي لب أن هذا كلام متحامل فيه كثير من لئوالقول وسخف العقل ومحرىض للعامية ضد الفلاسفة

مفردته

يقول ابن أبي أصيبعة عن ابن باجه : « كان في العلوم الحكيمة علامة وقته وأوحد زمانه . وكان متميزاً في صناعة الطب ، وكان متميزاً لصناعة الموسيقى ، جيد اللعب بالعود^(٢) » ؛ وعده ابن خلدون من أ كابر فلاسفة الإسلام بالأندلس ، وشهد له ابن طفيل في حي بن يقظان بالتقدم والفضل ، كما أن ابن رشد أعجب به كثيراً وحاول شرح بعض كتبه ؛ وعندنا أن لابن باجه ميزتين : ١ - إنه أول المشتغلين بالفلسفة في الأندلس بعد أن ظلت كتب الفلسفة زمناً طويلاً مطمورة في مكاتب المغرب ، ولهذا كانت خطوته جريئة ؛ إذ التلبة الفكرية كانت لرجال الدين ، وهذا يطل لنا ما لا فاه من اضطهاد وعداوة ظاهرة ، وضر لنا ما قاله الفتح بن خاقان آنفاً

٢ - إنه أول فلاسفة الإسلام الذين حاولوا أن يبحثوا الفلسفة مستقلة عن الدين ، وأن في إمكان العقل الإنساني أن يصل إلى المعرفة الحقيقية وكشف أسرار الوجود دون ما حاجة إلى التصوف والإجهاد بالعبادة

ومع ذلك لم يستطع ابن باجه أن يتم مؤلفاته لانشغاله بأمرور الدنيا ، ولأن المنية اخترمته وهو في ريمان الشباب . واستمع لابن طفيل يقول فيه : « ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحنق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة ، ولم يكن فيهم أتهب ذهنياً ولا أصح نظراً ولا أصدق رواية من أبي بكر بن الصائغ ، غير أنه شغلته

(١) قلائد العقيان ص ٣٤٦ - ٣٤٧ (٢) طبقات الأطباء ص ٦٢

اعتزاه رحلة طويلة حتى يكون على بينة من آرائه إذا قدر لها ألا يلتقيها . وأول ما يظهر لقارى رسالة الوداع رغبة المؤلف في إحياء معالم الفلسفة والعلم ، لأنهما في رأيه جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة بالطبيعة ، وبهدايته بعون الله إلى معرفة ذاته ، وبالارتباط بالعقل الفعال الذى يفيض من الله . ويتكلم فيها عن خلود النفس البشرية ، وعن العوامل التى تؤثر فى الإنسان وتدفع العقل فى سبيل الفكر ، وشرح غاية الوجود الإنسانى وغاية العلم وهما التقرب من الله عز وجل ، وكلامه فى خلود النفس مبهم ، ويقول بأحد النفوس^(١) ، وقد أحنهنا الرأى ابن رشد وكان لرأيه أثر كبير عند الفرق المسيحية حتى اضطر القديس توماس وأبوت الكبير للرد عليه فى مؤلفات خاصة . هذا وقد عاب ابن باجه الغزالي وقال : إنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال فى النقد من الضلال : إنه يستطيع أن يكشف العالم الحقيقى والعقل ويرى الأمور الألهية بالخلوة ويلتذ التنازلاً كبيراً

ومن هذا نرى أن ابن باجه يهاجم الغزالي بعد أن كان تأثيره عظيماً فى بلاد المغرب ، وبعد أن أسكت صوت الفلسفة فى المشرق ، وزاه لا يؤمن إلا بطريق العقل سبيلاً للوصول إلى المعرفة الألهية

٢ - رسالة ترميز المحمدر^(٢)

ذكر هذه الرسالة ابن رشد فى آخر كتابه على العقل المهيولانى حيث قال : « أراد أبو بكر بن الصائغ أن يخط خطة للتوحيد فى هذه الأمة ، ولكنه لم ينجزها وكثير منها غامض ، وستحاول فى غير هذا المكان شرح غاية المؤلف من هذه الرسالة لأنه أول من سار فى هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد^(٣) . بيد أن ابن رشد لم ينجز وعده ولم يبق لنا إلا ما نقله مونك عن موسى الأربونى ، وهذا المخطوط الموجود بالمكتبة التيمورية وهو غير كامل وقد قسم الأربونى هذه الرسالة ثمانية فصول ، ويظهر أن غاية ابن باجه فيها هى إثبات قدرة الإنسان المتوحد المنتفع بحسنات

(١) محمل هذا الرأى على حد ما ذكر ابن رشد : أن العقل الفعال يفيض بالصور والمقولات من عند الله سبحانه ، ولما كان الله أزلياً كان العقل الفعال أزلياً كذلك ، لأنه جزء من الكون الذى يقول ابن رشد بأزليته ، وهذه للمقولات والصور التى يفيض بها العقل الفعال دوماً لا بد أن تعقل ولا تعقل إلا بإنسان ، لذا فأزلية العقل الفعال تستلزم أزلية الإنسان (النوع الانسانى) ، ومعنى اتحاد النفوس أنها ممثلة فى العقل الفعال العام الحالى ، وأن الانسانى دائمة خالصة ، وأنها تتحد فى العقل الفعال . (٢) مونك من ٢٨٩ (٣) المرجع ذاته .

الدنيا حتى اخترمته النية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته . وأكثير ما يوجد له من التأليف إما ما هو كامله ومجزومه^(٤) « ؛ وقد تأثر به ابن طفيل فى حى بن يقظان تأثراً عظيماً ، وما حياة حى بن يقظان نفسه ورسوله إلى المعرفة الحقيقية فى جزيرته الخالية من السكان إلا محاولة من ابن طفيل للبرهنة على رأى ابن باجه فى تمكن العقل الإنسانى من كشف أسرار الوجود وحده

مؤلفاته

ذكر ابن أبى أصيبعة عدداً كبيراً من كتب ابن باجه وأهمها : شرح كتاب السامى الطبيعى ، قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطو ، قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطو ، ثم تعليقات على كتابى الحيوان والنبات لأرسطو ، وله تعليقات على بعض المسائل الهندسية ؛ أما مؤلفاته فكثيرة منها : كتاب فى الاسطوانات : (النار والماء والهواء والتراب) وكلام فى البرهان ، وكتاب النفس ، وكتاب اتصال العقل بالإنسان ، ورسالة الوداع وكلام فى الغاية الإنسانية ، وفصول قليلة فى السياسة المدنية ، ورسالة تدبير التوحيد ... إلى غير ذلك من الكتب

وليس لدينا وللأسف شىء من كتب ابن باجه ، ولقد أشار « مونك » إشارة موجزة إلى ما محتويه رسالة الوداع سند كرها فيما بعد ؛ ونظمت أيضاً رسالة تدبير التوحيد ، أو نقلها عن العبرية رواية عن موسى الأربونى Moise de narbonne أحد فلاسفة اليهود فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وشارح رسالة حى بن يقظان . وقد ذكر بروكلمان رسالة مخطوطة فى مكتبة برلين حاول نشرها الدكتور فروخ^(٥) ، ولم ينشر منها إلا صفتين هما عبارة عن جمل مقتضية غير متأسكة . ويظهر أن موضوع هذه الرسالة هو الغاية الإنسانية ، كما أن هناك رسالة فى المنطق لابن باجه فى مكتبة الأسكوريال سبقت الإشارة إليها فى أول المقال ، وقد كشف أبو ريده مترجم دى بور جزءاً من رسالة تدبير التوحيد فى المكتبة التيمورية بمصر (رقم ٢٩٠)^(٦)

١ - رسالة الوداع^(٧)

كتب ابن باجه هذه الرسالة لأحد تلاميذه وأصدقائه قبيل

- (١) حى بن يقظان طبعة دمشق ص ٦٦
- (٢) مجلة الآمال السنة الأولى عدد ١١ ص ٢٩
- (٣) دى بور ترجمة أبى ربه ص ٢٤٦ (هامش رقم ١)
- (٤) Munk, M'langes p. 385

مرسلات...

الغيرة

إني لتدركني الشفقة أحياناً على هذه الكلمة المفردة ، كما يشفق امرؤ ذو قلب على عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن أحداث الزمان قد جارت عليها ، وإن الدهر القلْب الذي يتنكر لكل شيء قد تنكَّر لها . إنها كالوظف المزعول الذي لم يمد يظهر في ديوان عمله ، أو كالتقد الثمين المتألق الذي لا يجد صدراً يزينه . إنها كالقلادة الرقيقة التي مات صاحبها وقيت في « خلفاته » تندبه في صمت ، وتذكَّر به كلما رمتها الميون ! لقد كانت « الغيرة » معنى مشرقاً في صدور الرجال ، فأصبحت رسماً باهتاً في بطون الكتب ؛ وكانت « مادة » ملوثة بارزة الأثر في حياة الناس ، فأصبحت « مادة » قابعة في قواميس اللغة !

لقد قشَّت عنها في نواح كثيرة من نواحي الحياة ، فلم أجدها كنت أحب أن أجدها : لم أجدها في البيت لأنني وجدت « المرأة » تحمك « الرجل » ، فلا يفار على حقه المنصوب ، ولا يالم لبطانه السلوب ؛ ولم أجدها في الطريق ، لأنني وجدت الخاوي تفرض على فارعه في صور مألوفة ، وأشكال معروفة ، فلا يفضب عليها غضب ولا يحمى بها صدر مغيار ! ولم أفتقدها بين سمار الليل في النوادي الآتمة والمجتمعات المهتكة ، لأنني أعلم كيف تصرع هناك الفضيلة ويصفع الحياء ! ولم أجدها في « مكاتب الموظفين » ، لأنني وجدت الأعمال فيها ههمة ، والأوراق مكسمة والناس على أبوابها يستصرخون ولا من يجيب الصرخ !

وأخيراً ، قشَّت عنها عند الذين يتنادون « بالإصلاح » ، ويتحلون « بالفضيلة » فلم أجدها : لم أجد من يفار على البراميج المعلقة ، والأمانة الضيعة ، والوعود المهملة ، والفساد الذي استشرى ، والنار التي تومض من خلال الرماد !

فأين — يارب — أجدها ؟ أين « الغيرة » ؟

عمر الصموقى

الحياة البعيد عن مفاسدها ، على الاتصال بالعقل الفعال بقواه الفكرية وحدها . ولا يوصى ابن باجة بالخلوة — كما يفهم من لفظ التوحد — إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة إلى سبل الوصول إلى الكمال ، وهو يشير إلى إمكان ذلك سواء كان هناك رجل واحد أو عدة رجال في درجة واحدة من الفكر ، وقد يستطيع هذا أهل بلد بأسره إذا كان تام النظام . ولم تخف على ابن باجة صعوبة هذا الأمر فأوصى التوحد بالميش في أغرب المدن علماً ، أى في أقربها إلى الكمال ، وأجمعها لأهل الفضل والحكمة . وسنعرض فيما يلي أهم ما جاء به هذه الرسالة تقيلاً عن « مونك » مختصرين ما أمكن (١)

الفصل الأول

تكلم ابن باجة أولاً عن لفظ « تدير » وأنه يدل في أوسع معانيه على مجموعة من الأعمال ترى إلى غرض معلوم ، فلا يمكن أن يستدل به على عمل واحد ، بل على جملة أعمال تنجز تبعاً لخطة معينة كالتدير السياسي والحربي . وينبغي أن يكون تدير التوحد على مثال تدير الحكومة الكاملة ، ومن علامات الحكومة الكاملة ألا يكون بها أطباء أو قضاة ؛ لأن أهل هذه المدينة لا يتناولون من الغذاء إلا ما يوافقهم ، وبذا تخفى الأمراض الناجمة من الغذاء ، وأما الأمراض التي تصيبهم بسبب عوارض خارجية فتزول بنفسها . ولما كانت العلاقة بين أهل المدينة بعضهم مع بعض أساسها المحبة امتنع الخلاف فاستغنى عن القضاة . والحكومة الكاملة تكفل لفرد أن يبلغ فيها أرق منزلة من الكمال ؛ لأن الكل يفكرون بأعدل تفكير ، وينظرون أدق نظر ، ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين ، لأنه يكون عالماً بها ، وبذلك تخلص أعمال الإنسان من الخطأ والهنر والخلل فلا يكون الناس بحاجة إلى الطب الأخلاقي وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه (البقية في العدد القادم)

(بيروت)

عمر الصموقى

(١) وجدنا في كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام للأستاذ محمد لطفي جمعة ترجمة لما ذكره مونك عن ابن باجة ونقلنا لكتاب تدير التوحد ، ولكن من الأسف لم يذكر الأستاذ جمعة أنه نقله عن مونك ، كما أن ترجمته تدل إما على قلبه أكثر من أو عدم فهم ، وذكر كذلك ما نقله مونك عن الفتح ابن خاتان وطلته في ابن باجة الذي نقلناه سابقاً ولم يرجع إلى ثلاثه البيان لينقل منه النص العربي فجاءت ترجمته مشوهة ، كترجمته لتدير التوحد ، وهذه زلة من الأستاذ كنا نقرهه عنها